الفصل الثالث

المرأة الحبشية

(ا) صفاتها وأخلاقها (ب) أمراضها العصبية (ج) زاوجها

المرأة الحبشية حسنة القامة ، هيفاء ، قسيمة . وهى أشبه شيء بتمثال من البرونز. لها جبهة عالية مدوّرة وأنف أقنى . وعينان واسعتان برّاقتان ، تلمح فيهما فتوراً جذاباً . وأسنان بيضاء كالبرد ، متساوية كأسنان المشط . وشعر فاحم أثيث يتدرج مابين الأجعد والسبط . يضفره بعضهن ، ويلطخه بالزبد معظمهن ، ولهن أقدام صغيرة .

والحبشيات ، وبخاصة الفقيرات منهن ، لايعلن إلى نظافة أجسامهن ، ولا يغسلن ملابسهن إلا نادراً ، ويقوم بهذا الغسل النادر الرجال على شواطىء الأنهار والبحيرات والبرك . ويندر استعمالهم للصابون ، ويستبدلون به نوعاً من النبات ينمو فى أرضهم . وليس بمستغرب فى الحبشة أن ترى الطفيليات القارصة الماصة تدب على ملابس العظيمات والعظماء على حد سواء .

ولا يعيب المرأة الحبشية فى نظر جمهرة الحبشان ألا تكون طاهرة الذيل ، موفورة العرض . وقلما يقيم الرجل لعفتها وزناً ، سواء أكان ذلك قبل الزواج أم بعده ما دامت قائمة بواجباتها ، مطيعة لأوامر زوجها .

ويعامل كثير من الأزواج زوجاتهم بالقسوة والغلظة . لا يخشون انتقاد منتقد . ولا يحذرون لومة لائم . لأن ذلك يكاد يكون عرفاً شائعاً عندهم . يذهب الزوج يوم بنائه بزوجته إلى الكنيسة ـ إذا كان الزواج كنسيًا ـ و بيده درة ذات مقبض من الصلب ، رمزاً للسيطرة والسلطان والقسوة .

ومن الأمثال الحبشية التى تبين عن مقام المرأة الحبشية عند الرجال الحبشان : « العصا للحمار وللنساء »[١] .

ويروى هربرت ڤيڤيان أن بعض الرحالين رأوا بعض النساء الحبشيات مقرونات مع الثيران يجرون المحاريث . وهذا إن صح منتهى المهانة والمذلة والابتذال .

(ب) أمراض النساء الحبشيات العصبية وعلاقتها الموهومة بالسحر

كتب المقريزى فى الإلمام « وعندهم (أى الحبشان) سحرة يمنعون الريح أن تهب . فيأمر الحطى أن يضربوا . ولا يزالون يضربون حتى تهب الريح ، فيذرون عليها غلاتهم . . . . . ولا يزال الحبشان يصدقون السحر والترهات وأقاصيص الجن والعفاريت واستهوائهم للناس وبخاصة النساء .

ولقد أوجد الخوف من الجن والشياطين ، وسحر الساحرين آلافا من المشعوذين الذين يدعون القدرة على طرد الشياطين ، ورد كيد الساحرين ، ومنع أذاهم عن الناس. ولذا يخافهم الحبشان ويتملقونهم ، ويهدون إليهم النفيس من المال . ولا يجرأ على إثارة غضبهم أحد .

ويذهب ضحية هؤلاء المشعوذين مئات من الأبرياء .

على أن الحبشيات كغيرهن من نساء العالم عرضة لأمراض وتشنجات عصبية كثيرة يفسرها المشعوذون الحبشان بأنها لمة من الجن ، فيهرع أهل المصابات إليهم ويستقدمونهم على جناح السرعة لعلاجهن بطرقهم الخاصة .

وتكثر الأمراض العصبية فى الحبشة فى فصل الأمطار حين تكثر العواصف ، ويكون الجو قابضاً .

ولقد قص أحد السائحين الثقات قصة هى العجب العجاب قال :

---

(١) الأستاذ مراد كامل : من مقال له فى الكاتب المصرى .

« أذكر أنى كنت فى إحدى مقاطعات الحبشة فى أواخر شهر أغسطس فثارت عاصفة شديدة : بدأت بعد الظهر بقليل ؛ فتلبدت السماء بغيوم دكناء ؛ وأظلم الجو ظلاماً لا تكاد تستبين منه شيئاً ، إلا حين يومض البرق . وكنت لا أكاد أسمع صوت محدثى من شدة هزيم الرعد ، وصوت سقوط الأمطار التى كانت تتدفق تدفق القرب . وكان يخيل إلىّ أن كل شىء فى السماء ، وكل نابتة على وجه الغبراء تئن ، وتتألم كأنما هى تعانى سكرات الموت ، أو بوادر انحلال الطبيعة . أو كأنما جيوش لجبة من الأرواح الشريرة تتطاحن وتتقاتل .

وما كادت العاصفة تستقر حتى بدأت أعراض البودا على فتاة حبشية من تابعات المستر ماير رفيق .

والبودا هو الاسم الحبشى للمرض العصبى الذى سنصف أعراضه فيما يلى من هذه السطور .

وكانت الفتاة المصابة ربعة عريضة الأكتاف ، مفتولة السواعد ، يظهر عليها سيما القوة . وأول بادرة من بوادر هذا المرض الشعور بالإعياء والإغماء الشديدين . ظلت الفتاة تعانى بوادره الأولى من بدء العاصفة إلى انتهائها فى نحو الساعة الخامسة مساء ، ثم أخذت حالها تزداد سوءاً حتى غابت الشمس ، فأغمى عليها . فصاحت رفيقاتها أن قد أصابتها لمسة من الجن . قال فحاولت بكل الوسائل الطبية إنعاشها قاصداً أن أبين للحبشان الذين تجمعوا حولها أن اعتقادهم حديث خرافة ، ولكنى لم أفلح .

وعلى حين فجأة ظهر صاحب الأرض التى كنا حالين بها . وكان من هواة السحر وطرد الشياطين ، كأنما كان على موعد ؛ وما كاد يدخل الكوخ على المصابة حتى بدأت تضحك ضحكا عالياً . ثم أخذت تهذى هذيان المحموم . ثم لم تابث أن هاجت وماجت . فقام لها ستة فتيان أشداء ، وأمسكوا بها . وهى تحاول الإفلات منهم . فكانوا يتغلبون عليها تارة ، وتتغلب عليهم تارة أخرى . تدفعهم بقوة عظيمة

إلى جانب من الكوخ ، فيدفعونها إلى الجانب الآخر . ثم تركلهم برجليها . وتعضهم بأسنانها . وتمزق ملابس من تحين منه فرصة . ظلوا كذلك مدة ، تمكنوا بعدها من التغلب عليها ، فغلوا يديها ، وقيدوا رجليها ، فارتمت على الأرض منكبة على وجهها وبدأت تصوت محاكية صوت الضباع . ثم حملت بعد ذلك خارج الكوخ فى العراء وشرع الرجل يرقيها ، ويتلو عليها تعاويذه ، فتخبطت فى نفسها كأنما تبغي الخلاص من قيدها ، والفرار منه . ثم اقترب منها فاعترتها هزة . وتوسلت إليه أن يبتعد عنها . فلم يأبه لتوسلاتها . ووضع تميمة على صدرها وشممها مخلوطاً مسحوقاً مكوناً من عظام الضباع ، وبعض الحشائش الشديدة الرائحة . وما كاد يفعل ذلك حتى هدأت .

وبدأ الرجل يسأل المصابة موجهاً خطابه للجنى الذى يعتقد أنه ملم بها وسبب مرضها .

— أين تسكن ؟

— فى داموت . (وهى إحدى ولايات الحبشة الصغيرة جنوبى بحيرة تانا)

— ما اسم أبيك ؟

— اسم أبى . . . .

— لماذا أتيت إلى هذا المكان ؟

— لقد التقيت بها فى سهل واديلا فى الطريق من مجدلا .

— كم شخصاً قتلت حتى الآن ؟ (فى اللغة الحبشية أكلت)

— ستة .

— آمرك أن تترك هذه الفتاة ، وألا تعود إلى إيذائها مرة أخرى .

— فأبدى العفريت (!) تلكؤاً فى بادىء الأمر . ولما هدد بأن يطعم جمراً ، استكان ، وخضع للأمر . ولكنه قبل أن يخرج طلب ما يسد به رمقه . وقد هالنى ما طلبه ! طلب أقذر الأشياء ! فأعد له ذلك الطعام الذى تتقزز منه

النفوس ، وجيء به مُلَفَّفاً فى بعض الحشـــائش الخضراء .

— فقال له الرجل : كما كان أبوك فلتكن أنت !

فما كادت المصابة تسمع هذه الجملة حتى وثبت مستوية على أقدامها . ثم حبت على رجليها ويديها نحو الطعام المذكور ، والتهمته بشهية وشراهة عجيبتين ، ثم أمسكت بحجر كبير ، يعجز عن رفعه ثلاثة رجال أشداء ورفعته إلى عاتقها . ثم طوحت به حول رأسها بسرعة عظيمة مقدار ثانيتين . ثم خرت على الأرض مغشياً عليها .

وقد أفاقت الفتاة بعد نحو نصف ساعة ، وهى لا تعى شيئاً مما حدث لها . »

ويزعم الحبشان أن بالحبشـة سحارين يقدرون على شفاء المصابين بمثل المرض الذى ذكرنا من غير أن يخطو إليهم خطوة واحدة . وذكر الرحالة الذى قص القصة السـابقة أنه علم أن فتاة حبشية ذات حسن وجمال من أهل مجدلا أصيبت بالبودا ، فأرسل أهلها فى طلب ساحر الجهة ، فلم يشأ أن يذهب إليها بنفسه . فأرسل خادمه . فلما رأته هدأت أعصابها . ونهضت ، ورفعت حجراً كبيراً على رأسها ملبيـة دعوة الساحر . وتقدمها الخادم وتبعته إلى بيت سيده ، فشفاها مما بها .

وهناك مرض عصبى آخر ، لا يصيب إلا العذارى ، يسميه الحبشان الزار[1] . وربما كان أصلا للزار الذى يحفل به بعض ضعيفات النساء ، وضعاف الرجال فى مصر.

ويقلد المصابات بهذا الداء أصوات الفهود . ولقد شـاهد الرحالة المذكور فتاة فى أثناء إصابتها بالزار ؛ وكانت فتاة جميلة الطلعة ، ضحوك السن ، طروباً تزيد قليلا على الخامسة عشرة . كانت تشتغل فى الصباح مع رفيقاتها ، فتنازعن فتبادلن السباب ، فثارت ثائرة الفتاة ، وأرغت وأزبدت . وتمشت الرعشة فى مفاصلها . فأخذت تصيح صياحاً مرعباً . وتضحك ضحكات شيطانية . وتحدق فيمن حولها تحديقاً وحشياً ، فصاحوا قائلين « زار ! » وانهالوا عليها ركلا بالأرجل ، ولطما بالأكف وضرباً بالسياط

(١) يرى الأستاذ مراد كامل أن الزار انتقل إلى الحبشان من الجلا ومعناه الروح النجس :

ولا جدال فى أن هذه أمراض عصبية من نوع أمراض الصرع المختلفة (epilepsy, catelepsy & hysteria) على أن من يشاهد فتاة خجولا تهيج وتموج وتتغلب على ستة من أشداء الرجال، وتدفعهم ذات اليمين، وذات الشمال، ثم تخضع وتستكين عندما يطلب منها ذلك شخص معين : سمه ما شئت ! إن من يرى هذا كله لا يسعه إلا أن يقرر أن فى أمر هذا الرجل شيئاً ! سمه سحراً ! أو سمه تأثيراً نفسياً !

(ج) الزواج فى الحبشة

والزواج فى الحبشة ثلاثة أنواع :

١ — الزواج العرفى : وهو السائد فى الحبشة . و ينعقد باتفاق الزوجين من غير أن يحضر هذا الاتفاق شاهد من أهله أو من أهلها ، ومن غير احتفال دينى أو أى إجراء مدنى . وهذا الزواج يحل بسهولة إذا ما رأى أحدهما أو كلاهما الطلاق .

زوجان سعيدان من الطبقة الراقية

٢ — الزواج المدنى : و يعقد بحضور شهود قلوا أو كثروا أمام العمدة (الشوم) و يحصى فى العقد أملاك الزوج وأملاك الزوجة وينص فيه على طريقة قسمتها . (أى قسمة أملاك الزوجين بينهما) فى حال الطلاق . وهذا الطلاق لا يحل إلا بحضور

الشهود الذين حضروا الزواج . وإذا نص فى العقد على القسمة مناصفة ، قسم كل شيء بالتساوى ، ويغالون فى ذلك إلى درجة كسر الأوانى الفخارية نصفين إذا لم يوجد مثيل لها .

٣ — الزواج الكنسى[1] : وهو نادر بين العامة . وغالب بين الخاصة من أمراء ورءوس وعظماء .

ولقد أراد أحد مطارنة الحبشة أن يدعو الحبشان إليه ، فأعد منشوراً يبين لهم فيه ضرورته ، مستشهداً بآيات من الكتاب المقدس ، وأذاعه عليهم . ثم أراد بعد ذلك أن يبدأ بأتباعه الأقربين ، وبطانته ، وخدم الكنيسة الكبرى (سان جورج) فأظهر الرجال قبولا واستعداداً ولما ذهبوا إلى بيوتهم ؛ وأخبروا زوجاتهم بذلك رفضن رفضاً باتاً . وثارت ثائرتهن . وقمن بمظاهرة صاخبة احتجاجاً على هذا النوع من الزواج الذى يربطهن بأزواجهن برباط أبدى لا انفصام له ، حتى ولو أساءوا معاملتهن وأذاقوهن العذاب ألواناً ، وقضين بحركتهن هذه على أثر المنشور .

ويندر لذلك أن يلجأ أحد حتى من المتزوجين زواجاً كنسياً إلى الكنيسة فى أمر الطلاق .

وإذا ما أراد زوجان أحدهما أو كلاهما الطلاق يتفقان على ما يدفعه الزوج نفقة لزوجته — وهو عادة عدد من الأبقر ، يزيد أو ينقص بحسب منزلة الزوج الاجتماعية ، وحالته المالية . وقد يفترقان فى الحال ، وقد يعيشان بعد ذلك فى منزل الزوج على أتم صفاء ووفاق .

---

(١) يرى الأستاذ مراد كامل « أن عدم الطلاق فى الديانة المسيحية الأرثوذكسية جعل الحبشان يهابون الزواج الكنسى ولكنهم استعاضوا عنه بالزواج العرفى ، والتزاماته بسيطة ، مما حملهم على الزواج الكثير . ونتج عن ذلك تحلل وعدم استقرار الحياة العائلية وإنك تجد فى المنزل الواحد عدة أطفال لآباء وأمهات مختلفين ، ومع ذلك لم نلاحظ اختلافاً فى أمر النفقة عليهم مما يدل على أن الحبشان قد اعتادوا هذا الوضع ، وهيأوا نفوسهم لقبوله وملاقاة مشاكله » .